الفصل الثاني

الإخـــوان

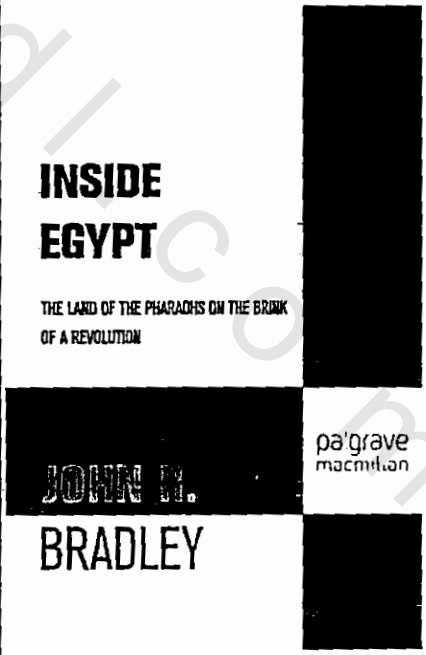

بنى الإخوان المسلمون حديثاً مبنىً من ثمانيـة طوابـق في ضـاحية القـاهرة ليكـون مقرات لنـوابهم البرلمـانيين الجـدد، ورغـم تمـتعهم بـوفرة المـال مـن مـنح الصـدقات ويعيشون في بحر مصر السياسي المضـطرب بالفساد ومحاباة الأقارب، إلا أنهـم نـادراً مـا يكونون مبذرين، ضـاربين بهـذا مثـالاً مقنعـاً لكيفية صرف المـال بحكمـة. لقـد فـازوا في انتخابات ٢٠٠٠ بخمسة عشر نائبٍ فقط من المقاعد الأربعمائة وأربعة وخمسين المتاحـة، لكنهم بحصولهم الآن على ثمانيـة وثمـانين مقعـداً في انتخابـات ديسـمبر ٢٠٠٥، فهـم يحتـاجون إلى مسـاحة مكاتـب إضـافية. ولتـدعيم حضـورهم في مجلـس السـنوات الخمس التشريعي، عزز الإخـوان سـمعتهم أيضاً، في الداخل والخارج، كقوة المعارضـة الأكبر والأفضل تنظيماً والأكثـر انضـباطاً في مصر. لكنهم رغم صورتهم السامية، يبقى مـا يترشـحون لأجلـه بالضـبط ملتبسـاً، لـيس للغرب فقط بل أيضاً لكثيـر مـن المصـريين.

obeikandl.com

ويبقى الإخوان المسلمون، الذين أسسهم حسن البنا عام ١٩٢٨ كحركة احتجاج ضد تأثير الثقافة الغربية الفاسدة وضد السيطرة السياسية البريطانية على مصر تحت بصر الملكية الألعوبة المتآكلة، مخلصين أولاً لاجتذاب المصريين إلى قبضة صارمة من التفسير المتشدد للإسلام. وهدف المجموعة الثانوي إعادة تقييم حلف مصر السياسي والعسكري التابع مع الولايات المتحدة، خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية – لكن ليس كلياً. وفي المدى البعيد، يتصورون إعادة إقامة خلافة إسلامية معتمدة على عقيدة رومانسية لما كانت عليه الحياة بحق تحت حكم الخلفاء الراشدين التالين لوفاة النبي.

كان دافع البنا الأصلي، كما صاغه أحد المؤرخين، «إصلاح القلوب والعقول، لإرشاد المسلمين بالعودة إلى الدين الحقيقي، والابتعاد عن التطلعات والسلوك الفاسدين اللذين أنشأتهما الهيمنة الأوروبية.» لقد ميز الجناح العسكري للجماعة (لم يعد موجوداً) نفسه بالشجاعة والتفاني في معارك ضد إسرائيل بعد قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ وضد جنود الاحتلال البريطاني على طول قناة السويس في أوائل خمسينيات القرن العشرين. حتى إنه نال إعجاباً بين وطنيي مصر الذين في غير ذلك لم يرحبوا ببرنامج جناح الجماعة الإسلامي المتشدد. لكن حُظرت المنظمة في ١٩٥٤، ثم أبادها ناصر تقريباً. فقد ادعى أنهم حاولوا اغتياله أثناء إلقائه خطاباً عاماً في أكتوبر من ذاك العام في الإسكندرية، والرصاصات سُمعت في بث حي من راديو القاهرة. وأنكر الإخوان أي تورط لهم في أحداث ذاك اليوم. ويجب ملاحظة أن ناصر على الأرجح لم يكن بريئاً من ترتيب مثل هذه الأزمات الدراماتيكية لتعزيز دعمه المحلي، مثلاً، تفجير مقهى جروبي المَعْلَم في قلب وسط القاهرة في محاولة لخلق حالة عدم استقرار في ذروة صراعه على السلطة مع الزعيم الصوري الأول للجمهورية.

على أية حال، بحلول ذاك الوقت كان للإخوان المسلمين مئات الآلاف من التابعين، سيبقون موالين بعناد لرؤيتهم بدولة إسلامية مهما شنق رعاع ناصر الكثير من رفاقهم أو صدرت بحقهم أحكام بدون محاكمة بالأشغال الشاقة أو التعذيب حتى الموت. إن جيلاً كاملاً من الإخوان أصبح متطرفاً بسبب التعذيب ومعسكرات الاعتقال والإعدامات. وكان هذا صحيحاً بصفة خاصة مع أولئك الذين وقعوا تحت سحر سيد

قطب، الإخواني المعدوم في أغسطس ١٩٦٦ (مع عدد من القادة الآخرين) بعدما وجهت لهم تهمة كاذبة بالتآمر. لقد حاجج قطب، في كتبه التي كانت السبب الحقيقي لإعدام ناصر له، بأن الدولة الناصرية تنتمي لفئة الجاهلية الإسلامية أو «جاهلية ما قبل الإسلام» – التسمية التي، بالنسبة له، وضعت النظام خارج حدود الإسلام، ومن هنا بررت الإطاحة به بالعنف. فكان على المؤسسة العسكرية، من أوائل سبعينيات القرن العشرين حتى أواخر تسعيناته أن تواجه موجة من الإرهاب الإسلامي، مُلهمَاً بكتابات قطب جزئياً، ومنفذاً من قبل مجموعات جهادية انشقت عن الإخوان المسلمين بعد اتهام قيادة الإخوان بقبول الوضع الراهن والنظام العسكري. وقد اشتمل العنف في تلك العقود الثلاثة اغتيال السادات في ١٩٨١ وقتل مثقفين علمانيين وهجمات متكررة على أقلية المجتمع المسيحية وكانت ذروته ذبح عشرات من السائحين قرب منتج بلدة الأقصر في صعيد مصر عام م١٩٩٧.

بالمقابل، نبذ الإخوان المسلمون العنف في بدايات سبعينيات القرن العشرين وتبنوا بحذر العملية الديمقراطية ونأوا بأنفسهم علانية عن برنامج قطب الأكثر راديكالية. وبرز الإخوان المسلمون خاصة الجدد، تحت إدارة عمر التلمساني المرشد الروحي المعتدل، كمساهمين رئيسيين في الجدل حول هوية مصر أعقاب إهانة مصر في حرب ١٩٦٧ وموت ناصر بعد ذلك بثلاث سنوات. لقد تركز الجدل حول المستقبل، لكنه دار حول سؤال عن الماضي: فهل يجب تفسير تاريخ مصر بحسب خطوط وطنية أو عربية أو إسلامية أو عرقية أو موالية للغرب – أم مزيج من هذا كله؟

لقد تجاذب القاهرة منذ زمن محمد علي مذهب المتعة الباريسي في الغرب وتزمتية مكة في الشرق. وبينما تمكن الوطنيون والتقدميون والإسلاميون والنخبة الثقافية المحاربين للاحتلال الأجنبي – مسيحياً ومسلماً – احتضان أفضل ما كان على الغرب تقديمه في مسار نضالهم من أجل استقلال مصر، رمى الإخوان المسلمون محمد علي وورثته، خاصة الخديوي إسماعيل، كمبذرين منحلين لثروة مصر ومنتهكين انتهازيين لعقائد وقيم الإسلام الذين شجع سلوكهم بين الجماهير بالتقليد التخلي عن الإسلام. وكان هذا بالنسبة للإسلاميين الأكثر راديكالية السبب الأصلي لانحطاط البلاد وكانت

عملية عكس الاتجاه بدلاً من تبني النمط الغربي للديمقراطية هي، كما اعتقدوا، ما يوفر المفتاح لخلاص البلاد، عودة مصر وشعبها لمجالها الطبيعي من الإلهام والتأثير الإسلاميين.

يوثق تريفور موستن في حقبة مصر الجميلة حياة الجانب التعس المظلم الخفي من مجتمع مصريي القرن التاسع عشر المحجوب غالباً بالقصص المألوفة أكثر من معارض الطراز العالمي والحفلات البراقة والقصور الفخمة، التي أدت إلى امتعاض شعبي كان الإسلاميون والوطنيون يتساءلون عنه. وبدلاً من إجلال نابليون وجيشه المحتل كرائدين عرضيين لتغير تحديثي تقدمي، رآهما الإخوان المسلمون بتفكير استرجاعي حول الماضي أكثر قليلاً من مخربين ذوي إرهاب-إسلامي فجين. لقد كان لديهم الكثير من الذخيرة، حيث لقي احترام نابليون العلني للإسلام اهتماماً قليلاً بالمعنى العملي عندما قام الفرنسيون، بعد هدمهم لمتاريس الغوغاء المصريين المحتجين ضد الاحتلال الفرنسي، تحت قيادته بالدخول بخيولهم في المسجد الأزهر مؤسسة التعلم الإسلامية البارزة وربطوا خيولهم في محاريب الصلاة وداسوا نسخ القرآن وبالإضافة إلى ذلك بالوا على أرضية المسجد. وبعد استغراقهم في السكر راحوا يجردون المتعبدين المسلمين الذين وقعوا وسط هذه الفوضى وسرقوا ممتلكاتهم.

بالمثل، ربما أبهج قرار إسماعيل بتحديث مصر على الطراز الباريسي، استعداداً للاحتفالات المحيطة بافتتاح قناة السويس في ١٨٦٩، ضيوفه الأوروبيين ودائرته المدللة الخاصة؛ لكن كان الجانب السلبي أنه أفلس الخزانة المصرية، مؤدياً إلى خلعه واحتلال البريطانيين مصر في كل شيء إلا اسمياً. ويكتب موستن بأنه عندما طلب قنصلا بريطانيا وفرنسا منه التنازل عن العرش، «لم يستطع الاستنجاد بشعبه لأن ضرائبه وطغيانه جعلاه مكروهاً لديهم.» إن قصص إسماعيل لممارسة الزنا غزيرة، دع عنك ذكر القتل المحتمل لعشيقات خائنات متعددات؛ حتى مصريين ذوي عقليات متحررة غير مهتمين لحياة حاكمهم الخاصة، لكن المعتبرين لأنفسهم مساوين للبريطانيين والفرنسيين، اغتاظوا من المعاملة الخاصة التي حظي بها الآخرون كضيوف للخديوي. إن إقصاءهم من نمط حياة الطبقة العليا للأحياء الأوروبية الجديدة في القاهرة، التي مُنع

منها الجميع إلا المصريين الأفضل اتصالاً والأكثر غربنة، كان مصدر دائم للإهانة.

ليس معنى ذلك، بالطبع أن طبقة القاهرة الدنيا لم يكن لـديها شـيء لتغنـي وتـرقص بشأنه أيضاً. فموستن يقتبس وصفاً لمعاناتهم من كتاب لوسي دوف جوردون رسائل من مصر بعد سنة من حدوث احتفالات قناة السويس، والـذي يبـدأ: «لا أسـتطيع وصـف البؤس هنا الآن لك.» وتواصل بأن هناك يومياً، «ضريبة ما جديدة. الآن يجب الدفع عن كل حيوان أو جمل أو بقرة أو خروف أو حمار أو حصان. لم يعد الفلاحـون قـادرين عـلى أكل الخبز؛ إنهم يعيشون الآن على وجبة من الشعير مخلوط بالماء ومـادة خضـراء غيـر مطبوخة والكرسنة، إلـخ.» لقـد عبـر الشـاعر المعاصـر صـالح مجـدي عـن اشـمئزاز الجماهير المصرية الجماعي من حكم النخبة وخاصة إسماعيل نفسه:

أموالك بتتبذر على القوادين والمومسات

الرجال العاديون يتزوجون بواحدة

هو يريد مليون زوجة

الرجال العاديون يملكون بيتاً ليعيشوا فيه

هو يأخذ تسعين

آه يامصريين، هناك بشاعة في كل مكان

اصحوا، اصحوا!

بحلول حكم الملك فاروق، كانت لم تزل الفجوة بين الأغنياء والفقراء تتسع أكثر. إن آرثر جولدسميث يكتب في كتابه مصر الحديثـة: تكـوين الدولـة الوطنيـة (٢٠٠٤)، «لم يستطع الفلاحون الفقراء دفع رسوم التعليم لإرسال أبنائهم وبناتهم إلى المدرسة؛ وحقاً لم يتمكنوا من عمل ذلك بدون حتى المداخيل الهزيلة التي كسبوها من عمـل أطفـالهم في الحقول.» ويضـيف جولدسـميت بـأن معـدل الوفيـات، خاصـة بالنسـبة للمواليـد والأطفال في المناطق الريفية، كان من بين الأعلى عالمياً. لقـد افتقـر الأكثـر فقـراً حتـى للمنازل؛ فنام المتشردون في مداخل البيوت وتحـت الجسـور وعـلى أرصـفة السـكك الحديدية.

إذا كان هذا يبدو مثل مصر اليوم، ذلك لأن المتشابهات ذات صلة لافتة للانتباه حقاً. إنها تعمل كمذكر، أيضاً، بأن مصر قد عادت لما كانت عليه سابقاً؛ وهي تعمل كمذكر بأن الحنين إلى عصر فاروق لدى بعض النخبة المعاصرة عرَض جزئياً لذكرى تم جعلها مثالية لأشياء مضت تتجاوز الواقع الذي واجهه معظم مصريون ذاك الوقت في حياتهم اليومية. هناك فارق واحد هام: في مصر اليوم الذابلة، تجاوزات الطبقة الحاكمة لا تنتج أي شيء ذي قيمة مطلقاً إن الفساد تحت حكم فاروق كان مشتلاً غنياً ومتفاقماً وكوزموبوليتانياً من الفن والثقافة الأهليين، مشتملاً على عقائد مستوردة من هنا وهناك وأماكن أخرى في «مصروية» خاصة المعرَّفة بدقة بطبيعتها الهجين؛ ظالمة، نعم، بطريقتها الخاصة كعنيفة ووحشية كما الوقت الحالي، لكن متنوعة وغير مرتبة وخصبة بدرجة كافية لتأوي كثرة من الآمال الفردية – حتى لو كانت تلك الآمال تبدو أنها على الأرجح ستتحقق. فهي، بكلمة واحدة، أوجدت أملاً. وبالمقابل، في كل مصر ما بعد ناصر المطهرة عرقياً وثقافياً، حتى النقود أصبحت مبتذلة، مولدة للأغنياء تقليداً قاحلاً فقط للحياة في أماكن أخرى وممولة فقط انغماس بلطجية النظام في ضرب أي فرد معسر حتى يهلكوه.

أحب أنور السادات ترويج صورة عن نفسه كرجل تقي من الشعب، حتى أثناء بيعه روح مصر للغرب الذي سحره وتاق إلى تبنيه واحترامه. حتى أنه قبل الانقلاب العسكري في ١٩٥٢ أقام علاقات مع زعماء الإخوان المسلمين. وأثناء سعي الرئيس الجديد لتهميش زمرة ناصر أعاد الإخوان إلى التيار العام وسهل تشجيعه خاصة حركات الشباب الإسلاميين في بلاد ما سيصبح جمعيات الطلاب المسلمين القوية في جامعات الجمهورية. فقد أوضح قائلاً: «أنا أود تنشئة أولاد مسلمين وأنفق عليهم لأنهم هم ملادنا.» إن الإخوان متحمسون للملكية الخاصة - فهي مبدأ إسلامي وليست شيوعية مطلقاً – لذا فقد تبنوا مبدئياً سياسة الانفتاح الساداتية التي بدت ستفتح الفضاء الاقتصادي للمبادرة والمكافأة الفرديين، الوعد بالتغيير عن فترة ناصر التي كُوفئ فيها فقط الانصياع للنظام وعُوقبت المعارضة. ومع ذلك، وسع نقدهم الحريء المتزايد للفساد والانقسامات الطبقية، التي ساعدت الخصخصة على تفاقمها وتوفيع اتفاقيه

السلام بين مصر وإسرائيل، الهوة مرة أخرى بينهم وبين النظام العسكري. فمبارك، بعد اغتيال السادات في ١٩٨١م من قبل متطرفين إسلاميين حتى أكثر راديكالية غاضبين من زيارته إلى إسرائيل، أعاد تصنيف الإخوان المسلمين المتهورين كخارجين على القانون رغم حركات التقارب المبدئية. وقد عنى إعادة تطبيق قانون الطوارئ بعد اغتيال السادات أنه يمكن اعتقالهم في أي وقت وبأي حجة بحسب هوى النظام. ولا تزال أحد النتائج الكثيرة السارية أن مئات من الإسلاميين سجنوا في غرف التعذيب المصرية. يجب القول بصراحة أن أعضاء الإخوان المسلمين، خاصة العناصر الشعبية الذين انتموا عن إيمان عميق، تعذبوا، وتعذبوا بفظاعة وغالباً بجلد عظيم، على أيدي النظام. وبالنسبة لزعمائهم، قدم ذاك الواقع فرصة لتصوير للذات كشهداء لقضايا الحرية والعدالة عن جدارة تماماً.

لا يزال، في ظل قانون الطوارئ، أن يترشح أعضاء الإخوان المسلمين للانتخابات رسمياً كـ «مستقلين». ومع ذلك، فهم يشنون حملاتهم صراحة تحت الشعار الأكثر شهرة من سلسلة شعارات حزبهم البسيطة – «الإسلام هو الحل» – لذا يعرف كل فرد انتماءهم الحقيقي؛ واستقبلني مُلصق، في الطابق الأرضي من مبنى قيادتهم الجديد، حيث كان على مقابلة رئيس مجموعة الحركة البرلمانية، يُعلن عقيدتهم الأكثر عسكرتارية: «القرآن دستورنا والرسول قدوتنا والجهاد طريقنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.»

بعد أشهر قليلة من انتخابات ديسمبر ٢٠٠٥م، قابلت نائب الإخوان البارز حمدي حسن في مبنى قيادة الحزب الجديد في القاهرة. حسن هو أيضاً الناطق الرسمي باسم كتلة المعارضة البرلمانية. إنه رجل طويل في منتصف العمر أصلع يرتدي (مثل كل رسميي الإخوان المسلمين) بزة وربطة عنق بشكل أنيق. لقد سلم علي شاداً على يدي وبابتسامة عريضة بينما خلعت نعلاي، وعبرنا من فوق سجادات للصلاة لأجلس من ثم على أريكة. وتعجبت لماذا نتقابل في صالة صلاة بينما توجد هناك ثمانية طوابق في بناية القيادة الجديدة هذه. لقد اكتشفت أن حسن جسَّد كل شيء يجده نقاد الإخوان المسلمين مغضباً بشأن المنظمة: الميل للتعامل بالمجردات بدلاً من المحددات

وتقزيم النقاشات إلى شعارات ويخبر الخارجيين، بما يعتقد أن حكومتهم تريد سماعه. لقد أوقف شعري من البداية بإصراره على التحدث بالعربية الفصحى، بالرغم من احتجاجي بأنني أتحدث اللهجة المصرية، ولذا سأجد صعوبة أكبر في متابعة ما كان يقوله بهذه الطريقة. إن كثير من الإسلاميين يفضلون الخطابة بالنوع اللغوي الأكثر رسمية في لغتهم، المشتقة من القرآن كونهم يرونها غير ملوثة نسبياً بالميول والموضات – المبتذلة – ولهذا أقرب للغة التي تحدث بها النبي. لكن أي مصري آخر غير قادر تقريباً على تحدثها بطلاقة، ولا يستمتعون بالاستماع للآخرين متحدثين بها. في الحقيقة هم فخورون بأن لهجتهم أصبحت اللغة المشتركة للعالم العربي، إلى مدى بعيد بسبب الهيمنة الإقليمية التاريخية لصناعة التلفزيون والسينما والموسيقى القاهرية. إنه لغريب أن مجموعة تدعي تمثيل مصالح المصريين الحقيقية والتي تقدم الكثير من البرامج الاجتماعية، تحافظ على مثل هذا الانقطاع الأساسي عن المصري العادي. في النهاية، وبغرابة إلى حد ما، اعتمدنا على مترجم – يترجم من ثقافة حسن الرفيعة إلى إنجليزيتي أو إلى اللهجة العربية الدارجة أكثر. وربما قدم عناده لمحة لكيفية انتصار الدوجماتية على المعقول والعملي إذا ما حصل حسن وزملاؤه على السلطة السياسية يوماً ما.

أخبرني حسن أنه كان قد اعتُقل مرتين منذ انتخابات ديسمبر ٢٠٠٥، «إن عائلة وحتى أصدقاء وزملاء لأعضاء الإخوان المسلمين الآخرين يعتقلون أو يُضايقون بشكل روتيني. فهدف النظام إرهابنا للتخلي عن جهودنا في الحصول على أهدافنا الدينية والسياسية.» لكنهم لن يُحوَّلوا إلى مزيد عن طريقهم بإجبارهم على القيام باستجابة غير عقلانية على هيئة تحدٍ مباشر للنظام أو اللجوء إلى العنف. لقد أراد إيضاح أن التغير الثوري الفجائي لعنة على كل شيء يقف هو وزملاؤه من أجله. وشرح، «إن كان هناك تغيير فجائي في مصر، ستكون هناك فوضى وذلك سيكون سيئاً لكل من مصر وبقية العالم.»

الذي أردت معرفته، ماذا كان برنامجه الشخصي كمرشح في الانتخابات ليثير مثل هذا الغضب من قبل الدولة؟ فأجاب:

هذه فترتي الثانية كنائب، وفلسفتي أن الإنسان جزء من مجتمعه. والإخوان في كل

مكان من المجتمع، في المنظمات الأهلية والحكومات المحلية والنقابات. هذا يجعل برنامجنا مختلفاً عن كل برامج الآخرين. نحن ننظر إلى الجوانب الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية من مشاكل المجتمع. ونحن نلبي حاجات الشعب في كل محافظات البلاد على كل مستوى. كما ونحن نستهدف أناسًا عاديين في الشوارع لمعرفة حاجاتهم ثم نحاول تلبيتها. إننا لا نريد جمهورية إسلامية، لكن حضارة حديثة؛ لكن لها أساس إسلامي. ليس لدينا أي مشكلة مع الديمقراطية والدستور. وليس لنا مشكلة مع آليات الحضارة الحديثة. نحن معارضة قوية في البرلمان ويمكننا إسماع صوتنا.

لم تُهدئ إجابته حيرتي، بالتأكيد ليس حول ما فعله هو والآخرون ليتم مضايقتهم واعتقالهم وسجنهم. فعلى الإجمال لا يمكن الاعتراض على أي شيء مما قاله أو اعتباره مُهدِّداً. فالشخص الليبرالي قد يتساءل فيما إذا كان تبني عبارة الإنسان جزء من مجتمعه ربما يعني أن حقوق الفرد تابعة للصالح العام، مُعرفاً هذا الصالح بما هو غير واضح. لكن النظام بالكاد ليبرالياً. ربما النظام قلق أكثر بشأن الإخوان المسلمين الساعين لتلبية حاجات الناس، متهمون له ضمناً بالعجز. لكن بدلاً من مواصلة الحديث، تحولت إلى العملي سائلاً بدلاً من ذلك عن التحالف غير الرسمي الذي شكله الإخوان مع نواب الاشتراكيين والمعارضة الأخرى في البرلمان، ومع مجموعات شعبية مؤيدة للديمقراطية مثل كفاية التي كانت تقود مظاهرات ضد نظام مبارك في الشوارع. فهل من الممكن أن يشكل الإسلاميون والاشتراكيون برنامجاً مشتركاً باسم الشعب المصري؟ فرد: «كثير من الأشياء تجعلنا نقف سوية، خاصة المواضيع السياسية مثل فيما إذا كان جمال مبارك سيصبح رئيساً. إننا جميعاً ضد ذلك. ونحن جميعاً أيضاً في صالح إصلاح سياسي وحرية الأحزاب السياسية وإنهاء قانون الطوارئ وحرية الصحافة. إن قاعدتنا المشتركة هي في المجال السياسي.»

ماذا عن حرية التعبير؟ إنْ سيكون القرآن الدستور، ألن يفرض ذلك قيوداً على المجتمع المصري التي سوف يقاومها العلمانيون؟

قال حسن بلا عواطف: «في بلد إسلامي هناك حرية تعبير كاملة لجميع الناس. إن التاريخ الإسلامي يؤكد هذه النقطة بوضوح كبير. ففي الماضي، كان لكل مواطن حق

التحدث إلى قائد المجتمع المسلم أو الأمة الإسلامية وقتما شاء: رجالاً ونساءً، مواطنين وغير مواطنين، مسلمين وغير مسلمين. الدولة الإسلامية لا تفرق بين هؤلاء الناس. هذا هو أساس ديننا، وليس مسألة سياسة. هذا سيكون جزءاً من دستورنا، لأن القرآن هو دستورنا لماذا نستعبد الناس وقد وُلِدوا أحراراً؟»

سألت ماذا ستكون طبيعة علاقات هذه الدولة التي سيقودها الإخوان مع الولايات المتحدة

قال. «يجب على أمريكا ألا تخاف من الإخوان المسلمين. أمريكا تدعو إلى حرية وديمقراطية أكبر هم يقولون بأنهم غزوا وأطاحوا بصدام حسين باسم الديمقراطية، والواقع على عكس ذلك. إنهم يدعمون الديكتاتوريات العربية التي تقمع شعوبها بالحديد والنار وينكرون عليهم الديمقراطية وحقوق الإنسان. يوجد تعذيب في سجوننا، كما أصبح واضحاً من الكثير من الصور المنشورة والأدلة الأخرى.»

صحيح. لكن جوابه قدم حتى الآن القليل من التفاؤل حول علاقات إيجابية؛ فعلى وجه الإجمال هو بحق سمى الولايات المتحدة منافقة ومسؤولة عن معاناة الشعب العربي. فقلت، كيف عن إجابة سؤالي: ماذا ستكون العلاقة بين الإخوان والولايات المتحدة؟

تمتم: «هذا وطننا ونحن ننتمي لهذه الأرض، إذن لماذا تأتي الولايات المتحدة وتخبرنا ماذا علينا أن نفعل عبر ديكتاتورييها؟ علينا تدريب أنفسنا لتحسين أنفسنا ونكون بلداً ديمقراطياً وإسلامياً على السواء وكذلك محترمين للتقاليد الغربية. لماذا لا نستمتع بكنوز بلدنا الضخمة؟ لماذا لا نعيش بأمان وكرامة؟»

كان الحصول على حوار مباشر من حسن أصعب من الحصول على دماء من الصخر. لكن ربما كان الأمر يستحق طرح سؤال زيادة. فطرحت عليه قائلاً بأن كثيراً من الناس يجادلون بأن الإخوان المسلمين يساعدون مبارك لأنهم يعطونه ورقة رابحة في تعاملاته مع واشنطن. فالأمريكيون خائفون جداً من الحركات الإسلامية القادر مبارك على إهمال تقدمهم بشأنها بينما يواصل الاعتماد على كميات ضخمة من المساعدة المالية التي تعمل كأساس لرعاية نظامه. ألا يجعله هذا الواقع يشعر بعدم الارتياح؟

لقد وافق بسرعة قائلاً: «النظام الحاكم يستخدمنا ليخيف الولايات المتحدة،» ثم غرق في صمت. فألححت عليه: كيف تشعر نحو هذا التناقض؟ فسأل بدوره مرتبكاً: «ما هو هذا التناقض بالضبط؟» فكررت السؤال بوضوح أكثر. فصرح بوقار: «سنوات حكم مبارك هي قطرات قليلة في محيط حياة هذه الأمة، مثلاً، كان عمر الاتحاد السوفيتي سبعين عاماً فقط عندما بدأ ينهار. نحن نعرف بأن المستقبل لنا. وسنكون أصدقاء لأي بلد يريد أن يكون صديقاً معنا. نحن لدينا إيمان ونعرف بأننا مبررون فيما ندعو له. إنني أعتقد بأن أي بلد غربي يفهمنا عن حق سيكون إلى جانبنا وليس مع الجانب الآخر ضدنا. هذا لأننا أصحاب مبادئ تُطبق على كل الأماكن وعلى كل شعوب العالم. إنها ستجلب السلام والأمن عبر العالم كله وبعدالة ومساواة للجميع. لن يكون هناك أي حروب أو مجاعات إن طُبقت مبادئنا.»

وخلص إلى أنه لم يأبه لما تقوله حكومة الولايات المتحدة أو تفعله ضد الإخوان المسلمين، وأصر قائلاً: «إننا نعرف بأن ليس هناك مشكلة بين فلسفتنا ومعتقدات الشعب الغربي، المشكلة هي في الزعماء. يبدو أن لديهم شيئًا ما سيئًا في قلوبهم ضد شعبنا وضدنا نحن على السواء.»

كتب مؤرخ الشرق الأوسط إيلي خدوري في مقالته الممتازة «الشرق الأوسط والقوى»: «إن أحد الوسائل الأبسط وحتى الأكثر فاعلية المعروفة للجنس البشري للحفاظ على التماس مع الواقع هي مقارنة ما يقوله الناس بما يفعلونه، مقارنة المهن بالأداء.» لقد كان يتحدث عن كيف يستطيع الغرب غالباً إساءة تمثيل العالم العربي بسبب البعد ونقص المألوفية، لكن مثل هذه الطريقة مفيدة أيضاً على الأرض عند تحليل أهداف الإخوان المسلمين – وحمدي حسن خاصة.

لقد ركز نواب الإخوان المسلمين البرلمانيين، في برلمان ٢٠٠٠-٢٠٠٥، معظم اهتمامهم على تقييد حرية التعبير في الميادين الأساسية الثلاثة، الثقافة ووسائل الإعلام والتعليم، التقييد الضروري لأجندتهم لأسلمة مجتمع من جذوره. إن المرء ليميل لاحترام إستراتيجيتهم على مضض: إنهم بربطهم مراجع عامة للقيم الإسلامية غارقة في أحلاقيات متجذرة عميقاً وبأجندة مبهمة مفتوحة للتأويل تستدر العطف من مجموعات

متنوعة وبأجندة عملية تركز على الثقافة، فهم يلعبون لعبة حاذقة في التنافس من أجل قلوب وعقول دوائر انتخابية متعددة. إن هجومهم الصاري على وزير الثقافة فاروق حسني عندما دعى ارتداء الحجاب كعلامة على الرجعية كان برهاناً إضافياً على هجوم ثقافي مستمر. على الإجمال إنْ إرادت امرأة حماية شرفها وتستجيب للتقليد الإسلامي، إذن لماذا ليس لديها الحق في فعل ذلك؟ إن تسمية ارتداء الحجاب بالرجعية ببساطة يضيف ضغثاً على إبالة عبر تحقير كلٍ من الأفراد والتقاليد بدلاً من احترامهما.

لكن الحق في التعبير مسموح به إلى مدىً محدود فقط لدى الإخوان المسلمين. فقد لاحظت الأهرام أن الإخوان في برلمان ٢٠٠٠-٢٠٠٥، الكتاب الذي يفصل أداء نواب المجموعة الخمسة عشر في تلك المدة، يذكر جمال حشمت عضو البرلمان السابق عن الإخوان كحائز على الفخر لإجباره سابقاً لحسني منع نشر ثلاث روايات قال الإخوان عنها بأنها تروج الكفر والممارسات الجنسية غير المقبولة. واستناداً للأهرام الأسبوعي، كشف الكتاب أيضاً أن حمدي حسن نفسه قد كان باستمرار في طليعة حملة الإخوان المسلمين لقتل التعبير الثقافي، من الأدب إلى مسابقات الجمال، وذخيرته الاتهامات بالكفر. وصرح الكتاب أن حَمدي يجعل حسني مسؤولاً شخصياً عن تبني زعامة «الحرب الحالية التي تقودها الولايات المتحدة ضد الثقافة والهوية الإسلاميتين،» كما وكشف الكتاب أن عدد الأسئلة الإجمالي التي سألها أعضاء البرلمان الإخوانيين في دورة ٢٠٠٠-٢٠٠٥ كانت ٨٠٪ منها حول مواضيع ثقافية أو حول وسائل الإعلام.

يجب ألا يثير الدهشة أيٍ من ذلك. فالثقافة قوة ضخمة، خاصة في مجتمع محكوم بالدولة بدرجة كبيرة. وبالسيطرة على الثقافة، تتصرف الدولة أبوياً، وتُرى إجراءاتها وغير إجراءاتها، كأي أب، كدلالة على الكفاءة لممارسة السلطة. والإخوان المسلمون يفهمون بوضوح أن القيم والأخلاقيات تتردد عاطفياً لدى الشعب ويستخدمون الانحراف والتمرد كأداة للتوبيخ. وهنا محاججة حسن بأن «الإنسان جزء من مجتمعه،» إذا تُوبعت إلى نتيجتها، ربما تحمل صبغة منذرة: فمنذ أن المجتمع أهم من الفرد، إذن يجب على الفرد إما الطاعة أو يتم إقصائه خوفاً من انتشار انحرافه أو انحرافها. وكما يفصل باري روبين في كتابه الأصولية الإسلامية في السياسة المصرية (٢٠٠٢)، فمنذ

أوائل تسعينيات القرن العشرين استخدمت مجموعات إسلامية «معتدلة» مثل الإخوان المسلمين التحويف للسيطرة على الحياة المصرية الاجتماعية والفكرية، النضال الـذي وظف «إجراءات قانونية وتعاليم ومنظمـات غيـر حكوميـة تلبـي حاجـات المـواطنين وأنشطة ضاغطة.» فمن الأحداث والمعارك الكثيرة، كانت القضية التي جذبت الاهتمام الدولي الأوسع قضية البروفيسور نصر حامد أبو زيد من جامعة القاهرة، الذي اتهمه أحد زملائه الأتقياء بالكفر بسبب كتابه الذي اعتمد أساليب بحثية نقدية لتحليـل عبـارات في القرآن. وبعد سلسلة من القرارات المتعارضة في المحـاكم الابتدائيـة، قضـت محكمـة قاهرية بأن أبو زيد كان مرتداً عن الإسلام حقـاً بسـبب أسـوأ شـكل مـن الانحـراف في الشريعة ويعاقب عليه بالموت. حقاً، طالب بعض رجال الدين الحكومة بإعدامه. ومـع ذلك، كان حكم المحكمة مقصوراً على الموضوع الملح الذي في متناول اليـد: فيمـا إذا كان يجب تطليق زوجة أبو زيد، كامرأة مسلمة صالحة بحاجة للحماية، بالقوة منه؛ أي، بغض النظر عن رغباتها الخاصة، يجب على الدولة أن تتدخل لحمايـة اسـمها وشـرفها الصالحين. وما قررته هذه المحكمة كـان فقـط الأمـر بـالتطليق. فهـرب الزوجـان إلى أوروبا حيث يبقيان في المنفى. إنه لمن الصعب جداً الاعتقاد بأن الإخوان المسلمين، لو سيطروا على البرلمان، سيدعوانهما للعودة. حقاً لقد كان المحامي الإسلامي الذي رفـع الدعوى، كفرد وليس كعضو في الإخوان المسلمين، ضد أبو زيد مبتهجـاً. وقـد اقتبسـه روبين قائلاً: «هذه فقط البداية. سنفعل هذا مع أي شخص يعتقد أنه أكبر من الإسلام.»

بالطبع، إن محاججة الإسلاميين الدائمة أن أجندتهم لا تتبنى الديمقراطية فقط بل في الحقيقـة ترتقـي بهـا إلى مسـتوى أعـلى مـن المشـاركة الشـعبية الحقيقيـة هـذا هـراء. فالديمقراطيات الغربية نظرياً تضمن المشاركة السياسية لكل المواطنين بغض النظر عن الأيديولوجيا والرأي والدين؛ لكـن الإخـوان المسـلمين وأمثـالهم يجعلـون مشـاركة الأفراد في مجتمع ما خاضعة إلى مبادئ الشريعة – لا أحد، بعد كـل شـيء – «أكبـر مـن الإسلام.» وفي الغرب، فرعا الحكومة التشريعي والقضائي يراقبان أفعال الدولة ليضمنا أنها تتطابق مع القواعد الديمقراطية: السلطات الثلاث تعمل على أبقـاء بعضـها البـعض تحت السيطرة. بينما في أي مشروع إسلامي سيراقب الإخوان المسلمون أفعال الدولـة

ليضمنو مطابقتها لقواعد الشريعة. بكلمات أخرى، سيراقب الإسلاميون فقط أنفسهم. إن الإخوان المسلمين يضمنون حرية الاعتقاد فقط لأتباع الديانات الموحاة «الإبراهيمية» الثلاث، مذ أن القرآن، بسبب ظروف النبي الخاصة، جاهل كلياً، لنقل مثلاً، بالبوذية ويعالج فقط مواضيع تتعلق بالشرك (الذي كانت مكة مركزاً له في زمنه)، الذي يديه القرآن طبيعياً مذ أنه يسعى ليحل محله. وحرية تكوين الجمعيات التي تتمتع بها منظمات مدنية في ديمقراطية ما ستكون مشروطة، في أي نظام إسلامي، بحسب التزامهم بقيود الشريعة. فالإخوان المسلمون يعارضون الاعتقاد بدولة معتمدة كلياً على مؤسسات ديمقراطية بالنمط «الغربي» الحركة الإسلامية تعتمد على نظام الشورى (مجلس الشورى) وتبجيل الزعيم وتنصيب المرشد الأعلى. هكذا تقول الشريعة الإسلامية ولذلك يجب أن تكون. باختصار، إنها حجة محط تساؤل، تفترض أن الحرية الكاملة وحقوق الإنسان قد تحققت من السابق في الديمقراطية الإسلامية، متحاشية الحاجة لأي شك وجدل واستكشاف وأي شيء آخر يغذي تطور ثقافة ما، فيما عدا مثل هذه السفاسف التافهة أثناء ما قد يُميل الحاكم من حين إلى آخر أذنه الجليلة لها. ذاك هو المبدأ الذي يرشد المملكة العربية السعودية، والنتائج هناك للجميع يروها في إنجازات المملكة القاحلة الهامة على مدار العقود السبعة الماضية في الموسيقى والفن والأدب والفلسفة والعلم والتكنولوجيا.

عندما وضع الإخوان المسلمون برنامجهم السياسي المفصل الأول في أكتوبر ٢٠٠٧، أظهر وجهات نظرهم الحقيقية. ستمنع النساء والمسيحيون من الرئاسة ومجلس رجال الدين الإسلاميين سيشرف على الحكومة في حركة لاحظها كثير من المراقبين كمذكر مخيف بالدولة الإيرانية الإسلامية. فالوثيقة تقول لا يمكن أن يكون الرئيس امرأة لأن واجبات المنصب الدينية والعسكرية «تتناقض مع طبيعتها ومع الأدوار الاجتماعية والإنسانية الأخرى،» ومما يثير الدهشة أن المخطط ناقش كما يُقال مواضيع المرأة تحت فصل الحركة المعنون بـ «مواضيع ومشكلات»، بجوار «مشكلات» أخرى مثل البطالة وعمالة الأطفال. بينما يطنّون «المساواة بين الرجل والمرأة بحسب كرامتهما الإنسانية» إن الوثيقة تُحذّر من «إرهاق النساء بواجبات تتنافى

مع طبيعتهن أو دورهن في الأسرة.»

لقد كان انتخاب الكثير من النواب الإسلاميين في ٢٠٠٥ ذروة رحلة طويلة للإخوان المسلمين، تميزت بمعارك دائمة ضد أدوات مستبدة من الاضطهاد والتعذيب والإعدام. فبالنسبة لكثير من المراقبين، كان انتخابهم بهذه الكثرة علامة هامة أخرى أيضاً على تطور الجماعة مبتعدين عن العنف. إن دخول الإخوان المسلمين التدريجي إلى سياسة التيار العام المصري يجري مراقبته عن كثب في الغرب، بينما الأحزاب السياسية الإسلامية الأخرى التي هي جميعها تقريباً فروع للإخوان المسلمين يجربون الانتخابات والديمقراطية عبر العالم العربي والإسلامي الأوسع. إن أنشطة الإخوان المسلمين تختلف من بلد إلى آخر، والفروع مستقلة رسمياً؛ لكن اقتبس زعماء في مصر يقولون بأنهم جميعاً موحدين في معتقداتهم ويستمدون النصيحة من الفرع المصري الرئيس. لقد أطلق عرضهم القوي في الانتخابات المصرية فيضاً من كتابات محللي الشرق الأوسط في المجلات السياسية، تدعو معظمها واشنطن لانخراط أكبر مع الجماعة، التي تُرى بشكل متزايد في دوائر السياسة الخارجية واقعية كأهون الشرين، عند مقارنتها بالنظام العسكري، في المشهد السياسي المصري الداخلي.

ومع ذلك، ربما أن ما فُهم من السطح على أنه نصر انتخابي بالنسبة للإخوان، لم يكن شيئاً بالمطلق. فهم حصَّلوا ٢٠٪ من المقاعد؛ لكن على الغالب صوت ٢٥٪ من المصريين. ومذ أن الرقم الأخير قدمه النظام، فيجب النظر إليه بشك كبير. إن أي شخص ذرع شوارع مصر يوم الانتخابات البرلمانية كان سيواجه صعوبة في إيجاد مواطن يعلم بحدوث الانتخابات، ناهيك عن مواطن يعرف أية معلومات عن مرشحيهم المحليين إنْ كان يغذ السير حقاً إلى أماكن التصويت. لكن حتى بقبول أرقام الإقبال الرسمية، تمكن الإخوان المسلمون فقط من جمع دعم، استناداً إلى أحد تفسيرات النتائج، أقلية صغيرة من السكان في سن التصويت، بالرغم من استطلاعات الرأي المبينة أن الأغلبية الساحقة مستاءة بعمق من آداء النظام. ضمنياً، تطرح هذه المحاججة أن ٢٥٪ ممن أقبلوا على التصويت كانوا عينة ممثلة من الكل. لكن ليس هناك سبب ملموس للاعتقاد بهذا، أيضاً هناك مضمونان، أحدهما أن أولئك الذين فعلاً أقبلوا على

التصويت كانوا مدفوعين، أي أن الإخوان المسلمين كانوا مدفوعين، وهكذا فالعشرون في المائة تقدير مبالغ فيه. وبالعكس، ربما مؤيدو الإخوان المسلمين لم يُقبِلوا كثيراً بسبب الخوف، لذا يمكن أن تكون النتائج قدرت بشكل أقل. الهدف هو أننا لا نملك أي طريقة للمعرفة، حتى بافتراض أن الأرقام التي قيلت صحيحة ولم تتلاعب بها الحكومة - بالزيادة أو النقصان، وهذا الأمر الأخير يثير الخوف في الغرب. بيت القصيد، أن تسمي النتائج انتصاراً للإخوان المسلمين، نتيجة متسرعة جداً.

بالإضافة إلى هذه التفاصيل المعقدة (والمتجاهلة في الغرب بدرجة كبيرة) هناك الكثير من الأدلة القصصية تبين أن كثيراً - ربما الأغلبية - من هؤلاء المصوتين للإسلاميين يفعلون ذلك ليس حباً كبيراً فيما يترشح الإخوان لأجله، رغم «انغلاقهم على الذات» وتحولهم إلى التدين بصورة شخصية أكثر أعقاب هزيمة ١٩٦٧، ولكن احتجاجاً على فساد ووحشية نظام عسكري نجح في سحق البدائل العلمانية. إن هذا له أصداء في قصة حماس في المناطق المحتلة وكلنا يعرف كيف انتهى ذلك. إن هذه الرواية البديلة توحي أن قصة الإخوان المسلمين ليست كثيراً قصة انتصار في وجه محنة بقدر ما هو فشل لحشد دعم شعبي شامل رغم ضيق اقتصادي وسياسي واجتماعي في مصر الذي أثبت في مكان آخر أنه بيئة خصبة جداً لانتشار الإسلامية - راديكالية أو غيرها.

يجب التطلع أيضاً بنظرة أكثر انتقادية للحجة المقبولة بشكل كبير بأن الدولة المصرية كانت خائفة جداً من انتصار الإخوان المسلمين غير المتوقع في انتخابات ٢٠٠٥- كما ثبت من التزوير واسع الانتشار والهجمات العنيفة من قبل بوليس معربد ضد مؤيدي الإخوان المسلمين في الشوارع والاعتداءات الجسدية على أفراد في معاقل الإخوان المسلمين في محاولة لمنعهم من الإدلاء بأصواتهم. فبعد إغلاق صناديق الانتخاب، استأنفت قوات الأمن فعلاً اعتقالاتها التعسفية للإخوان المسلمين، جزئياً في محاولة من قبل النظام لجعل النواب البرلمانيين الجدد تحت السيطرة؛ والنظام فعلاً قرر حينها تأجيل انتخابات المجالس المحلية المقررة في خوف ظاهر من مكاسب أكثر للإخوان المسلمين أيضاً. من السطح، هذا يعطي الانطباع لنظام مستاء وخائف من التصاعد المفاجئ للإخوان، إن لم يكن جنون ارتياب صريح. لكن يجب التذكر دائماً أن

في مصر، استناداً إلى ناقدي مبارك، النظام العسكري وممثله الرئيس نفسه، من يقرر كلياً الرابحين والخاسرين، على الصعيدين البرلماني والرئاسي؛ ولهذا السبب، بأي هامش. فالسياق إذن هو كل شيء. لقد حدثت انتخابات ٢٠٠٥ في وقت غريب نوعاً ما. فالأمريكيون كانوا مرة أخرى يطالبون بالديمقراطية، على الأقل علناً، الأمر الذي كان غير منسجم مع دعمهم للأنظمة الاستبدادية مثل نظام مبارك – كما لم يسأم الإخوان أبداً من الإشارة إلى ذلك. وفي السباق إلى انتخابات ٢٠٠٥، حينها، كان مبارك تحت ضغط محدود لمدة قصيرة من واشنطن لتسريع مسيرة برنامج إصلاح محلي مؤجل. وهل كان الأمر سيمط الخيال كثيراً جداً لو نظر نظام مبارك إلى حضور إخواني أكبر في البرلمان في تلك اللحظة كأمر مريح، أي تحذير مبطن للأمريكيين بأنه لو ضغطوا من أجل الديمقراطية إلى مدىً بعيدٍ جداً عليهم أن يكونوا حذرين أو خائفين من انحراف أفضل النوايا بعيداً عن المأمول؟ كان في الخلفية، بالطبع، انتصار حركة حماس الإسلامية الراديكالية في السلطة الفلسطينية أعقاب الضغط الأمريكي من أجل انتخابات حرة ونزيهة. لقد كان مبارك، بضمان الإخوان المسلمين خمس المقاعد، يرسل لشركائه القلقين لفترة وجيزة في واشنطن رسالة غير مباشرة مفادها: إنْ لم تريدوني، أهلاً بكم لدى الإسلاميين المنبعثين، لكن أجندتهم (على عكس أجندتي) معادية لإسرائيل ومعادية للأمريكيين عسكرياً. كان النظام في الواقع يقول، لا يمكن للأمريكيين أن يملكوا كعكتهم ويأكلونها أيضاً. وأمكنه، من الناحية الأخرى، عمل المستحيل: فنجاح الإخوان المسلمين في الانتخابات خفَّض الضغط الأمريكي بينما أبقى نظام مبارك الضغط الساحق على قاعدة الجماعة بنفس الطريقة التي داس بها جهاز أمن الدولة البلطجي على كل حركات الاحتجاج المعارضة، الجهاز الذي يفهم فقط سياسة العنف والقمع. ومما لا يثير الدهشة أن الإخوان المسلمين، في الانتخابات اللاحقة، المنعقدة بعد تراجع الولايات المتحدة عن حملتها لـ «نشر الديمقراطية، أخفقوا في الفوز بمقعد وحيد، رغم تقديمهم تسعين مرشحًا.

لهذا يجب أن تكون نقطة البداية لأي نقاش حول تأثير الإخوان المسلمين في مصر الإقرار بأن عدد المقاعد التي حصلوا عليها ليست بالضرورة انعكاسًا حقيقيًا لدعمهم؛

والأكثر أهمية أن الغالبة الساحقة من المصريين لم تصوت لهم ولا لحزب مبارك الديمقراطي الوطني. إنهم بدلاً من ذلك ألقوا بالبلاء على كلا مجالس الحزبين بالبقاء في حالهم بعناد.

ليس معنى ذلك القول بأنه إنْ وضع مبارك الإخوان وواشنطن في معارضة بعضهما، ليست لعبة خطرة، وليس أن واشنطن قد لا تجد نفسها بمواجهة الجدار بمساعدتها لمدة ربع قرن مثل هذا الديكتاتور المبغوض وفاقد الكارزمة الذي يسمح بمعارضة إسلامية مُسيطر عليها لتتحدى سلطته رمزياً. فعلى المدى البعيد، يمكن للإخوان المسلمين أن يكونوا طليعة تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض. وكمعارضة منظمة ومنضبطة سيكونون في الوضع الأفضل ليتحركوا سريعاً لملء أي فراغ في مركز الدولة المصرية إذا أطاحت انتفاضة شعبية بالنظام، حتى أنهم من الجلي لن يكونوا من يبتدئون ثورة ما.

إن الإخوان المسلمين، كدهاة في وسائل الإعلام ومراقبين أذكياء لكيفية تصويرهم في الغرب، لابد وأن ثقتهم قد تعززت عندما قفز محللو السياسة المقيمين في واشنطن إلى عربة الزفة حول «الإحياء الإسلامي» في مصر، قادمين كما فعلوا على ظهر كتب أفضل المبيعات مثل كتاب جينيفي عبدوا لا إله إلا الله: مصر وانتصار الإسلام وكتاب ماري آني ويفر صورة لمصر: رحلة عبر عالم الإسلام العسكرتاري (لاحقاً أعاد إصدار «فصل جديد عن ابن لادن» بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١) ذلك عرض مصر أيضاً كساحة معركة بين الإسلاميين والديكتاتور. وربما قد أصبحت هذه القعقعة في واشنطن، ولو بغير قصد، جزءاً لا يتجزأ من إستراتيجية مبارك السياسية. إنها تساعد في تعزيز نبوءة تحقيق الذات التي يستغل نظام مبارك بها الدعم المحدود الذي يملكه الإخوان المسلمون في الوطن لخلق تهديد كاذب، والذي يرفعه المعلقون في الخارج من ثم إلى أهمية أعلى أيضاً.

إن المفارقة الحقيقية هي، مع ذلك، دور الإخوان المسلمين الخاص في هذه العملية، وأشك، أن السبب الحقيقي وراء عدم رؤية الناطق الرسمي حسن للتناقض: ولاستخدم ألفاظه هو، الجماعة جزء كبير جداً من المشكلة، بدلاً مما هي جزء من الحل، عندما

يصل الأمر إلى مأساة مصر الأليمة الحالية.

إن استغلال مبارك لمخاوف واشنطن من حضور الإخوان الشعبي بين بعض قطاعات فقراء مصر يرفع مكانتها كثيراً. أضف الحقائق بأن الجماعة لا تملك دعم أغلبية بين المصريين وأن النظام مع ذلك يسحق بشكل مفيد البدائل العلمانية بينما يشجع الفاشية الثقافية التي يمثلها الإخوان المسلمون، وأصبح الأمر واضحاً لماذا يملك الإخوان مصلحة ذاتية في بقاء مبارك في السلطة، على الأقل حتى ينضج الوقت لهم للقبض عليها منه خلال انتفاضة شاملة. وأي حماس أظهروه أحياناً لمساعدته في تحقيق تلك الغاية! فعمر التلمساني، المرشد الروحيّ الإصلاحي المؤثر في سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن العشرين، ألح دائماً على حاجة الجماعة إلى اعتراف وقبول رسميين، حتى كان مادحاً مبارك كزعيم جلب مزيد من الحرية – وبكلماته «رجل نظيف وذكي وجيد جداً يعرف ماذا يريد.» علاوة على ذلك، كان الإخوان المسلمون في ١٩٨٧ مجموعة المعارضة الوحيدة في البرلمان المصوتة لصالح مدة رئاسية ثانية لمبارك الذي يفترض أنه عدوهم الرئيسي.

هذه المسخرة – الاحتجاج ضد الحكام بينما تقدم لهم خدمة أيضاً – تعود في الماضي لمدة طويلة. فقد قيل لمدة طويلة، مثلاً، أن الملك فاروق والبريطانيين شجعوا الإخوان المسلمين في أيامهم الأولى كوسيلة لمواجهة تأثير حزب الوفد الوطني. والأغرب أيضاً، تظهر وثائق رسمية مكتشفة حديثاً بواسطة باحثين يدرسون فترة ناصر أن هذه المنظمة الإسلامية في ١٩٦٦م المفترض إخلاصها لتخليص مصر من التأثير الأجنبي دخلت فعلياً في مفاوضات مع الـ CIA حول فرص نجاح انقلاب معاد لناصر يقوده الإخوان.

إن الإخوان المسلمين، إذن، يبقون دعامة هامة من المؤسسه بدلاً من أن يكونو عدوها، ضامنين للمؤسسة طول العمر حتى أثناء إدانتهم لعجزها – كل ذلك بالاعتقاد الراسخ بأنه، طالما الله في جانبهم، فإنهم يوماً ما سيخرجون منتصرين وفي هذه الأثناء يمكنهم الاستمرار في العمل نحو ما كان دائماً هدفهم الأهم، أعني أسلمة مصر من الأسفل. إن آخر قطعة من هذه الأحجية هو الشعب المصري. إن كراهيتهم لمبارك مع

ذلك، ومبارك يعلم أن الجزء الأعظم منهم يكره بشكل أكبر أيضاً احتمال قيام نظام إسلامي ينتهك مجالات وجودهم الخاصة (بالإضافة إلى مجالاتهم العامة)، تُعطي بالتالي مبرراً آخراً أيضاً ليلعب على إعلاء أهميتهم بأكثر من حقيقتها.

إن الاختلافات في الاتجاهات الإسلامية في مصر منذ سبعينيات القرن العشرين، بين أولئك الذين يدافعون عن ثورة عنيفة وأولئك الذين رفضوا العنف لصالح إصلاح تدريجي، يُشرح غالباً بالإحالة إلى سيد قطب. فبينما اتخذ الإسلاميون الراديكاليون العازمون على قلب النظام العسكري كتاب قطب معالم في الطريق (١٩٦٦) كبيان رسمي لهم، تتواصل هذه المحاججة قائلة، أن الإخوان المسلمين في رفضهم للعنف أداروا ظهورهم لقطب وبدلاً أنصتوا عائدين إلى التراث العظيم من الفكر الإسلامي الليبرالي الذي جاء من تلقاء نفسه في القاهرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما فصله بشهرة أكثر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا. ومع ذلك، كما يبين بوضوح الاضطهاد الناجح لأبي زيد والطلاق الإجباري من زوجته والغضب الشديد الحالي الزائد حول مجرد الإمكانية بعدم ارتداء امرأة الحجاب، الإخوان المسلمون حرفيو العقل إلى مدىً بعيد وضحلون في تفسيرهم للإسلام والتقاليد الاجتماعية ليؤتمنوا أن يكونوا جزءاً من فرع أكد دائماً الحاجة، من بين أشياء أخرى، إلى تفسير موضوعي وعلمي للقرآن واحترام آراء الآخرين. إن ذلك الفرع الثالث، مع ذلك، لا يزال موجوداً فعلاً في مصر، ولا يزال حياً على الأغلب بواسطة شخص مخالف هو جمال البنا. إنه الأخ الأصغر لحسن البنا المُغتال مؤسس الإخوان المسلمين.

أمضى جمال البنا، ابن الخمسة والثمانين عاماً، كثيراً من حياته في دراسة النصوص الإسلامية ونشأ بعكس كل التوقعات كمفكر ليبرالي، رجل يرغب في رؤية تفسير القيم والممارسات الإسلامية في سياق أزمان معاصرة. لقد كان قادراً على تكريس نفسه للدراسة لأن أخته تركت له مالاً وفيراً، وبالتالي حامية له من الانجرار مع تيارات السياسة اليومية. وبإدراك تام لحظه الجيد النادر، وصف نفسه بـ «رجل مستقل تماماً» (ليس لديه أسرة أو أطفال): «أنا غير موظف، ولست في أي حزب ولا أنتسب لأي شيء.» حقاً، حتى أنه لم يذهب إلى الجامعة بعد طرده من المدرسة الثانوية على إثر نزاع

مع أحد المعلمين، وأكمل تعليمه في مدرسة تقنية. وبدلاً من ذلك، قال، بأنه أراد أن يكتب، والكتابة هي ما فعل. فكتابه الأول، في ١٩٤٦، كان عنوانه ديمقراطية جديدة وفي فصل منه تحت عنوان «نحو فهم جديد للإسلام» – الفهم الذي جاء من رجل يقول بأنه توقف عن الصلاة لفترة في المراهقة لأنه «لم يجد أي حس من الجمال» في النشاط ويُقر صراحة بأن الكثير من أحاديث النبي شبه المقدسة في السنة كانت «موضوعة.» إلا أنه في تحول ذهني مميز، قال بأن هذا لا يعني نبذها بدون التفكير فيها، إذ أنها وضعت مبادئ هامة. «ما يعنيه الأمر فعلاً أن الوقت حان لدراسة السنة بطريقة مختلفة.» إن كل واحدة من هذه الملاحظات، في حكومة دينية، ستؤدي إلى إعدامه؛ لكن هذا غير مهم بالنسبة لجمال البنا: «أنا أمثل التحضر،» قال البنا ذلك بلا غرور، فقط مقرراً حقيقة.

لقد قابلت جمال في مكتب مليء بالكتب في مؤسسة فوزية وجمال البنا التي كان يديرها في قلب القاهرة الإسلامي. حقاً إنه فريد: له رأس نبيل بمقدمة جبهة عريضة وأنف معقوف وذقن حازمة مجرورة كما لو كانت سفينة محيط بموجات منتظمة مجعدة من شعره المنحسر المسرح للخلف– إنه شعر مصري فريد على رأس فرعوني تقريباً. واستقلاله الفكري تشكيلة واثقة كلياً ومبتسمة ومعتدلة يجب أن تدفع الخصوم إلى ذرف دموع من الغضب لا جدوى منها. لقد تعزز الإحساس بكونك في حضرة قديس غريب بالبزات عالية الياقة والمحاكة بعناية ،وسوداء التي يتأنق بها بشكل ثابت تقريباً كما لو في تعبير خارجي عن إخلاصه طول حياته لنظام ديني، نظام ديني لكن معاصر – إنها بدلة بدلاً من الجلبية – ومع ذلك ليس تماماً كأي رجل قابلته أبداً. لقد أخبرني بأن الإخوان المسلمين تأسسوا كمؤسسة مدنية، بمفهوم اجتماعي أكثر منه، ديني لكيف يجب أن يُعاش الإسلام ويُنشر ويُفسر.

إن الاختلاف بيني وبين أخي هو الاختلاف بين الأول والأخير، فحسن وُلد الأول في إخوتي وأنا كنت الأصغر. كان بيننا أربعة عشرة عاماً. وقدرياً، كان حسن من أيامه الأولى إلى نهايتها قائد إسلامي وكان ليموت كرجل دعوة. بالنسبة لي، إنها قصة مختلفة. لقد وُلد حسن في قرية المحمودية وأمضى طفولة شاعرية جداً هناك. وقد دخل المدرسة الدينية الابتدائية في القرية عندما كان عمره أربع أو خمس سنوات وعُرف

كتلميذ ذكي غير عادي. وفي ١٩٢٧، عُين مدرساً في مدينة الإسماعيلية التي كانت مقر قيادة شركة قناة السويس. وقد درس هذه المدينة، واكتشف حالاً بأنها تشكلت من عالمين: عالم لموظفي الشركة الأعلى الذين كانوا أوربيين تماماً والآخر للعمال الذين كانوا جميعاً عرب وفقراء وجهلة

كان لدى حسن البنا فكرة تغيير واقعه. فذهب وجلس في المقاهي، وليس في المسجد، واختار من الناس الذين قابلهم ستة عمال من الشركة ليشكل الإخوان المسلمين في ١٩٢٨. وقال أخوه : لو أن حسن البنا كان قد دخل الأزهر، لغيرته البيئة تماماً، ولما كان قادراً على تدشين حركته. وواصل، «من البداية كان الإخوان المسلمون حركة مجتمعية.»

كان هذا خلال حقبة مصر الليبرالية، الفترة الأكثر روعة في تاريخ مصر. لكن عندما تأسس الإخوان المسلمين، كان لها أيديولوجيا بسيطة، وكان أحد مواهب حسن البنا تمكنه من جعل فكرة معقدة جداً بسيطة جداً ومفهومة بالنسبة للجماهير. لقد امتلك مقدرة استثنائية ليبسط المواضيع الصعبة والخاصة. وبعد بعض السنوات، تفرعت الإخوان المسلمون بين الإسماعيلية وبورسعيد. ثم في ١٩٣٢، نُقل حسن البنا إلى القاهرة. وفي ١٩٤٨، دُشنت الإخوان المسلمون في القاهرة كجمعية دولية، لتنشر الإسلام كطريقة للعيش. كان ذلك آخر سنة في حياة حسن البنا لأنه كان قد اغتيل في فبراير ١٩٤٩. لكن النمو السريع للإخوان المسلمين بين ١٩٢٨ و ١٩٩٤٨ كان دليلاً على قدرات منظمته. وبحلول وقت وفاته، كان هناك خمسمائة فرع عبر مصر كلها ونصف مليون عضو.

وقد أوضح أن القصة الحقيقية للارتفاع في قاعدة دعمهم كانت عملهم الخيري.

من البداية، تم تأسيس جمعية خيرية في كل فرع للإخوان المسلمين؛ وكل فرع من الجمعية الخيرية سُجل لدى وزارة الشؤون الاجتماعية. كان هناك المئات من الجمعيات الخيرية قبل حسن البنا، كل واحدة موجودة بانفصال عن الأخرى؛ لكنه أسس النموذج الذي ستولد منه كل الحركات الإسلامية الأخرى لاحقاً - حتى لو أنهم بعد ذلك أصبحوا مستقلين. ففي أحد كتبي عقدت مقارنة بين لينين وحسن البنا، بمعنى

أنه أنشأ الحزب البلشفي وخلق رابطة محكمة حديدية بين الحركة وأعضائها.

بالعودة إلى علاقته بأخيه، قال، «كانت علاقة ديالكتيكية جداً.» فبكل طريقة، كان حسن عالمًا إسلاميًا. لكن العائلة انتقلت إلى القاهرة عندما كان جمال أربع سنوات، وبعكس أخيه، لم يدخل مدرسة القرية الدينية أو مدرسة لحفظ وترتيل القرآن.

بدلاً من ذلك، ذهبت إلى مدرسة ابتدائية كان منهاجها علمانياً. فبينما كان هو بصحة جيدة وعاش طفولة بسيطة سعيدة على النيل وتحت الشمس، كنتُ مريضاً جداً وضعيفاً ولم يكن لدى أي هوايات غير القراءة. لقد كنت نتاجاً لمدينة ضخمة وليس للقرية وقرأت الكثير الكثير من الكتبّ وكلها كانت ذات مواضيع علمانية. لقد قرأت عن الاشتراكية وعن الحركات الدستورية في أوروبا، حتى عن النسوية. وتوقفت عن الصلاة لفترة وجيزة مثل ما يفعل كثير من الناس عندما يكونون شباباً وأتذكر حسن قائلاً لي: «عليك أن تصلي! وأنا قلت له بأنني لا أجد حسًا من الجمال في هذا النشاط. فرد بأن على أن أصلي حتى لو كانت الصلاة أداء لواجب فقط. ذلك كان اختلاف هام بيني وبينه، وبالرغم من أننا أحياناً تشاجرنا كان هناك ولع عميق بعلاقتنا، حب حقيقي من كل واحد منا. على أية حال، قراءاتي أعطتني اتجاهاً مختلفاً.

لذا فهو يمثل المدني، بينما يمثل أخوه الديني. وأوضح، «لدى تحفظات على الإخوان المسلمين من البداية – تحفظات حول اتجاههم نحو دور المرأة والفن والسياسة.»

عندما أخبرت حسن البنا عن ذلك، استمع وابتسم، لكنه لم يجبني أبداً. لقد كان قائداً، وسيكون الأمر مخاطرة قبول هذه الأفكار لأن الجماهير احتاجت عبارات بسيطة، وقائداً ذا رؤية واضحة. لا يزال الإخوان المسلمون يملكون نفس أجندته المتكونة من كل الأشياء التي أعترض عليها: تطبيق قانون شريعة صارم، منع الفائدة البنكية، معارضة الفن، وهكذا. لكنهم ذو طبيعة إصلاحية وليس ثورية؛ فهم لا يريدون السلطة من أجل السلطة، لكن كوسيلة لتطبيق الشريعة، إذا طبق أي حاكم آخر الشريعة سيصفقون له ويدعمونه. وعندما سألني حسن البنا عن الشعار «الإسلام هو الحل،» أبلغته بأنه شعار جيد، لكنه النهاية. إنني أفهم الشريعة بطريقة مختلفة تماماً، بطريقة أكثر

دقة. أساساً، أنا أفهم الشريعة بأنها تعني العدالة. أي شيء لم يكن عادلاً وطبق الشريعة يجب تنحيته. وأي شيء كان عادلاً ولم يطبق الشريعة علينا تبنيه. إنني أفهم هذا الشكل من قراءتي للعلماء المسلمين العظام في الماضي. كل الإسلاميين الآخرين يفكرون فقط في تطبيق الحدود، مثل قطع يد السارق ورجم الزناة.

وألح قائلاً، الإخوان المسلمون والإسلاميون يستفيدون من الانتخابات، الابتداع العلماني الأوروبي، ليكسبوا مقاعد في البرلمان، ومن ثم يشرعون في فرض أجندتهم الدينية المتطرفة على كل واحد.

ومع ذلك، لنّ يستطيع الإخوان المسلمون تطبيق رؤيتهم الصارمة المفضلة للشريعة أبداً في مصر إن وصولوا إلى السلطة، لأن الشعب المصري سيقيدهم، لأنه في أغلبه لا يريد هذا التطبيق. وعموماً، عندما يقابلون تحدي معالجة واقع معقد، سيكونون غير قادرين على حل أي مشكلة من المشاكل التي يعتقدون أن الإسلام هو الحل لها. إنهم يترعرعون فقط في المعارضة. لذا فإن من السخرية أنهم لو وصلوا إلى السلطة، ستكون نهايتهم. من هم الذين أحبوا بالمطلق حكومة تحكمهم؟ من أجل البقاء في السلطة عليهم القيام بتنازلات كبيرة، حتى في مبادئهم الأعمق. والتاريخ ليس في صالحهم: فكل التجارب لإقامة دولة إسلامية في العصر الحديث فشلت، لأن الدولة الإسلامية ليست ظاهرة طبيعية. إن السلطة دائماً تفسد الدين. حتى الخلفاء الأوائل أفسدتهم السلطة. وبدون السلطة فإن فضائل للإخوان المسلمين الوحيدة هي امتلاكهم للأمانة والطيبة، اللتين لا يمكن لأحد نكرانهما.

لا يزال العمل الخيري مهماً للإخوان المسلمين بأهمية الوعظ، متيحاً للجماعة أن تكون جذابة لما هو أبعد من كتلتها الانتخابية الأساسية عبر نظام من البرامج الاجتماعية واسعة النطاق. فالمجالات المدعومة من قبل الجماعة تشمل التعليم والصحة والتدريب المهني. إن الإخوان المسلمين يديرون على مستوى البلاد اثنتين وعشرين مستشفىً. إنها تملك أيضاً مدارس في كل محافظة. وتدير مراكز رعاية عديدة للأرامل والأيتام الفقراء. ومع ذلك يفتقر الإخوان المسلمون إلى رخصة حزب رسمية، ما يمنعهم فنياً من النشاط السياسي، لكن التكوين الاجتماعي لعملهم عوض هذا العيب

بدرجة كبيرة. واستناداً لتقارير متعددة، يدير الإخوان المسلمون ما يُقدر بـ ٢٠٪ من ما يقارب الخمسين ألف منظمة غير حكومية وجمعية مسجلة في مصر.

لم تكن إلا غرفة واحدة غير مشغولة فقط، عندما زرت مستشفى العمرانية الذي تديره الجماعة في منطقة فقيرة من القاهرة بعيداً عن الأهرامات بكيلومترات قليلة في منتصف ٢٠٠٦.

لقد قال لي عبد الحميد مندي إسماعيل المدير العام للمستشفى أثناء جولة في أرجاء المستشفى، «لنا روابط وثيقة بالإخوان المسلمين وأنا عضو في الجماعة.»

وأوضح بأن اثنتين وعشرين مستشفىً تديرها اللجنة الطبية الإسلامية التي أسسها نائب المرشد العام السابق ويتم تمويلها من الصدقة الإسلامية.

لقد قال، «نحن أرخص من المستشفيات الخاصة، لكن أغلى من المستشفيات الحكومية. ومع ذلك، إن كان هناك شخص لا يستطيع الدفع حقاً، لا نتقاضى منه أي شيئًا.»

يستخدم كل من المسيحيين والمسلمين المستشفى وتُعطى النساء علاجاً سواء ارتدين حجاباً أم لا. ولا تتوفر أرقام دقيقة للنسبة المئوية للمرضى المسلمين والمسيحيين المعالجين، يقول إسماعيل، لأنه لم يُسأل أي شخص عن اعتقاداته الدينية مطلقاً.

وبعدم الشك في كل الخير الذي يفعلونه، المستشفيات مع ذلك مثال آخر لتورط الإخوان مع النظام. إن هناك تناقضًا واضحًا هنا بين منع الجانب السياسي للجماعة بينما تزدهر كمنظمة خيرية. ومرة أخرى، هناك مكافأة في هذا لكلاهما: يوسع الإخوان المسلمون تأثيرهم، بينما تستفيد الحكومة من جعل الآخرين ينظفون الفوضى التي خلقها النظام في المقام الأول عبر سوء إدارته الفاسدة للنظام الصحي.

لو تقرر واشنطن الاستماع إلى أصوات المحللين داخل البيلتوي وتهاجم مبارك وخليفته فقط لاكتساب الإخوان المسلمين، فإنها لن تحقق الكثير من «انتصار الإسلام» بل ستدق أجراس الموت النهائي لمجموعة تقاليد مصر العميقة من الديمقراطية

والتعددية، بنتائج مدمرة على المنطقة الأكبر. ولحسن الحظ، هناك أيضاً أصوات عاقلة تنتظر أن يُستمع لها. فجلال أمين يطرح في كتابه مهما حدث للمصريين؟ مثلاً، بأن هناك سببين رئيسيين لأن تصبح مصر على ما يبدو متدينة بوضوح أكثر في العقود الحالية؛ إنهما يقطعان شوطاً طويلاً في شرح الاتجاهات الحادثة في نفس الوقت للأسلمة من أعلى ومن أسفل على السواء. إنه يكتب، «عندما بدأ الاقتصاد يتباطأ في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين مصحوباً بهبوط في أسعار النفط والانهيار الناتج في فرص العمل في الخليج، كثير من الآمال التي بُنيت في السبعينيات نُظر إليها فجأة على أنها غير واقعية، وتبع ذلك شعور شديد من الإحباط.» ويضيف بأن ميلاً طبيعياً نحو التزام أكثر صرامة بالتعاليم الدينية في القطاعات النامية من المجتمع ذوي الخلفيات المتواضعة جداً «يمكن أن تتحول بسهولة إلى التطرفية الدينية إن ترافقت مع إجهاض شديد للآمال السابقة بتقدم اجتماعي.» لقد أوضح، مع ذلك، أن النجاح والفشل يمكن أن يكون لهما نفس النتائج كذلك أيضاً، مذ أن التطرفية الدينية يمكن أن توفر غطاءً مفيداً لأولئك الذين راكموا ثروة أو دخلاً «سواء بطرق غير شرعية أو أخلاقية» – وهو يستخلص قائلاً بأنه كلما كانت درجة الفساد أكبر، لما كانت درجة النفاق الديني أكبر.

إن كان أمين على صواب، وكان مزيج من سوء الإدارة الاقتصادية والفساد الصارخ في جذر إحياء مصر الإسلامي، إذن طريقة مكافحته هي بمعالجة المواضيع التي هي سببه. بكلمات أخرى، إنها أساساً قضية تمييز الأعراض عن المرض. ربما على المرء أيضاً أن يجد أملاً في حقيقة أن الغالبية الكبرى من السكان المصريين رفضت الأجندة الإسلامية، أو على الأقل جداً لم يتبنوها بعد. وإن حقاً هناك أسس لمثل هذه الآمال، فإنها ربما تقع في مثل هذه البقايا من العمارة، تنوعية مصر الحيوية التي كانت في عصر الملكية التي لا الإخوان المسلمون ولا النظام، رغم أفضل جهودهما المشتركة، لم ينجحا تماماً في محوها على المستوى الشعبي.